الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة
(1919- 1939)

الأستاذ خير الدين شترة

جامعة أدرار

1/ مـــقـــدمـــة

لقد مثّل جامع الزيتونة – وإن وُجد ضمن شيوخه وخريجيه من كان يعمل لفائدة الإستعمار ويجتهد بالفتاوى في تعليل وجوده في تونس – معقلا من معاقل الوطنين ورجال النهضة إلى جانب المدرسة الصادقية، غير أن القراءات السابقة للحركة الوطنية كانت تُقلّل وتُحط عن قصدٍ أو دون قصدٍ من شأن الطلبة الزيتونيين وإسهامهم في الحركة الوطنية التحريرية ودورهم البارز في معركة الهوية مُغلبةً في المقابل دور عناصر أخرى.

وإنه من الإنصاف والموضوعية إعادة الاعتبار لهؤلاء الطلبة الجزائريين في معركة الهوية والدفاع عن الذاتية. . إلا أن الأكيد أن أجيال الطلبة الزيتونيين المتعاقبة لم تتجاوز إلا نادراً دور الجماهير إلى موقع القيادة والتسيير في النخبة الوطنية الجزائرية.

اهتم كثيرٌ من الكتاب والمؤرخين، ودرسوا طويلا تطور التعليم الفرنسي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية للبلاد، ورغم قلة عدد الفرنسيين فقد شكل هؤلاء المحور الرئيسي الذي دار حوله اهتمام الكتاب الفرنسيين بالأخص ثم حذا حذوهم بعض الكتاب الجزائريين ومن الطبيعي إنه نظرا إلى الدراسات المكثفة التي خصّ بها هؤلاء الكتاب الطلبة الجزائريين المفرنسين، يجد الدارس لهذا النوع من الطلبة الجزائريين معلومات كثيفة عنهم تكاد لا تحصى، وبقدر ما كان الاهتمام كبيرًا بالتعليم الفرنسي وطلبته كان كذلك الإهمال كبيرًا للتعليم العربي وطلبته.

وسنحاول من خلال هذا العمل تسليط الأضواء على بعض الجوانب من النشاط السياسي والثقافي والفكري لبعضهم بعد أن ندرس هجراتهم المتتابعة إلى تونس والمسارات التي اتخذوها خلال فترة ما بين الحربين وكذا وضعيتهم المادية والأدبية خلال مرحلة تكوينهم العلمي.

2/ البعثات والرحلات التعليمية من الجزائر إلى تونس:

شهدت الجزائر منذ مطلع القرن العشرين هجرات طلابية محدودة، توجهت بصورة رئيسية نحو جامع الزيتونة، وكان يحدوا هؤلاء الطلبة المهاجرين رغبة في إستكمال دراستهم العالية، بعد أن أتموا تعليمهم الابتدائي في الزوايا التعليمية، ويكفي أن أغلب علماء الجمعية كانوا من خريجي الجامع الأعظم.

وتميّزت هجرات الطلاب الجزائريين المبكرة بأنها كانت نتيجة رغبة شخصية أو مبادرات فردية، ولم تشهد البلاد قبل الخمسينيات بعثات طلابية منظمة سوى بعثات الطلاب الميزابيين الإباضيين، التي أخذت تتوافد إلى تونس بصورة منتظمة منذ عام 1914. ولم تحاول جمعية العلماء إيفاد بعثات تعليمية منظمة إلى خارج البلاد وعلى الأخص إلى المشرق العربي إلا في عام 1951[1].

ففي العقد الأول من القرن العشرين هاجر إليها الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889-1940) سنة 1908م، والشيخ الحاج ناصر كروش وابنه الشيخ حمو، لتتدفق الهجرات والبعثات بعد الحرب العالمية الأولى، حيث صارت تونس هي مقصد كل من يُريد الثقافة العربية الواسعة[2].

1-الخطيب (أحمد)، جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي في الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص217

2- دبوز (محمد علي)، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط 1، ج 2، الجزائر: المطبعة العربية، 1971، ص 20.

ويُعتبر الشيخ ابن باديس أحد واضعي أسس التواصل الطلابي بين تونس والجزائر [1] بحيث كانت رحلته إليها فاتحة عهد جديد بين القطرين، حتى بعد عودته إلى قسنطينة لم يقطع صلاته بشيوخه فيها وبرعاية منه وصلت إلى تونس أول دفعة من هذه البعثات التعليمية في سنة 1913م، إلا أن ظروف الحرب العالمية الأولى لم تمكن الطلبة من البقاء في تونس فإضطروا إلى العودة إلى بلادهم إلى أن وضعت الحرب أوزارها؛ حيث استأنفت هذه البعثات طريقها إلى تونس [2]، وكانت منتقاة من أفاضل الدارسين أمثال مبارك الميلي والعربي التبسي والسعيد الزاهري وعبد السلام القسنطيني ومحمد العيد. . . وهم اللذين تخرجوا بين سنتي (1924-1925)، فهؤلاء مثلوا طليعة المتخرجين وساهموا أدبيا وفكريا في مجال الكتابات الصحفية والتجمعات العلمية[3] .

كما برزت مسارات أخرى اتجهت انطلاقا من الجزائر نحو الزيتونة كمسار الجنوب الصحراوي أي منطقة وادي ميزاب (التي سنتحدث عنها لاحقا)، وأيضا مسار آخر إقتصر على إرتياد الزوايا والكتاتيب والمدارس الواقعة على مقربة على الحدود الجزائرية التونسية وهو مسار الوسط الذي تمثله مدينتي تبسة ووادي سوف، ويصف مالك بن نبي طبيعة هذا المسار الوسطي ونوع البعثات التي ترحل من مدينة تبسة في اتجاه مراكز التعليم

1- هلال (عمار)، العلماء الجزائريون في البلدان العربية (ق 19- 20)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م، ص 87.

2-الجابري (محمد الصالح)، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 48

3- الجابري (محمد الصالح)، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، تونس: الدار العربية للكتاب، 1983، ص 37.

بنفطة، فيقول: " كان في تبسة ثوران من الأفكار حقا يحفظه ويرعاه ويصونه العلماء اللذين أخذوا يعودون من الشرق"[1].

إن ابن باديس بعمله الرائد هذا أستطاع أن يساعد على تنمية هذا الإقبال التلقائي ويجعله إحدى الخصائص المميّزة لهذه المناطق، ويُحوّله من طابع الهجرة الفردية العشوائية إلى البعثة المنظمة الواعية كهجرته إلى"قمار"؛ التي كان لها أثر كبير في شبابها، وكما يذكر أبو الق اسم سعد الله: "فقد كان هؤلاء الشبان الذين سافروا للدراسة في جامع الزيتونة يعودون بعد عام فيتصلون بشبان جدد ينشرون بينهم أفكارًا جديدة فكان عدد الذاهبين يزداد في خريف كل سنة "[2].

وهكذا لم تكد الحرب العالمية الثانية تضطرم، ويتوقف بسببها كل نشاط للهجرة العلمية حتى كانت الجزائر تزخر بعشرات الخريجين الذين تمركزوا للدراسة بالمعاهد، وتعززت هذه الحركة العلمية بتأسيس المعاهد والنوادي والمدارس والجمعيات والصحف، وبالتالي فقد قدمت الزيتونة أفواجًا من العلماء والمفكرين لم يقتصر دورهم على تعبئة المشاعر الوطنية والعمل من أجل بعث الجزائر وإنما كانت لهم مساهمات نشيطة في مجالات الفكر بتونس[3].

لكنّ الشيء المميّز بالنسبة للميزابيين هو أن رحلاتهم التعليمية لم تقتصر على تونس العاصمة فقط بل حتى مدينة جربة التي كانت تزخر بالعلماء، فيقصدونها للتعليم والتزوّد من الصلاح الذي تتسم به، ولضمان أكبر قدر من النجاح إنتدبوا للإشراف على أول

بن نبي (مالك)، مذكرات شاهد القرن، ج1، تر. مروان القنواتي، بيروت: دار الفكر، 1969م، ص 81

2- منطلقات فكرية، بيروت: الدار العربية للكتاب، 1979م، ص 44.

3- مرحوم (علي)، "لمحات من حياة الشيخ ابن باديس"، الثقافة، عدد 24، الجزائر: مارس/ أفريل 1975، ص-ص. (106-107).

بعثة إجتازت تبسة إلى تونس في ماي 1914م، الشيخ إبراهيم بن الحاج عيسى أبو اليقظان والحاج عمر العنق* حيث أجّروا بمساعدة التجار الميزابيين في تونس دارًا للإقامة وسميت "دار البعثة"، وأثناء الحرب تعززت بفوج آخر من الطلبة سنة 1917م ضم يحي بن باحمد والحاج عمر بوحجام والناصر ملالي وأبو اليقظان وإبراهيم بن بكير[1] فدخلوا جامع الزيتونة.

وهذه البعثات الميزابية لم تنقطع حتى أوائل الستينات، وكان لرؤسائها والقائمين عليها إسهامات في الحياة الفكرية التي عاشتها تونس وتميّزوا بصدارتهم في صفوف الحركة الوطنية التونسية. ولما كثر عددهم فُتحت لهم مقار جديدة في بئر الحجار (المدرسة السليمانية) أو (ابن خلدون) إضافة إلى السلام والعبري، وكانت هذه المدارس مزاراً للشخصيات العلمية والسياسية مثل ابن باديس والثعالبي وحسن عبد الوهاب ومحمود الزغواني والمختار بن محمود والفاضل بن عاشور[2].

وقد كثُرت البعثات العلمية من الجنوب والشمال في العقد الثالث والرابع من القـــرن العشرين إلى تونس حتى بلغت المئات، وأغلبها إلتحق بجامع الزيتونة، بعد أن كان الذهاب إلى تونس ولو بصفة فردية من المحظورات التي سنها الاستعمار الفرنسي.

---

*- العنق عمر إبراهيم (1882-1956): ساهم مساهمة فعالة في تأسيس الجمعية الصديقية ومدرستها في مدينة تبسة سنة 1913، من أصول ميزابية، وكانت له مواقف في الحركة الإصلاحية، بتبسة، وساند البعثات الميزابية إلى تونس مادياً ومعنوياً. للإطلاع راجع: دبوز: مصدر سابق، ج2، ص-ص. (263-264). وأيضا: جمعية التراث: أعلام الإباضية، ج3، ص-ص. (628-630).

1- وضمت القائمة طلبة آخرين، يراجع اسمائهم في: دبوز: مصدر سابق، ج2، ص 178. ينظر أيضا: الكاملي (أبي راس عبد الله)، أبي إسحاق إطفيش، قسنطينة: مطبعة الشهاب، 1968، ص 55.

2- دبوز (محمد علي)، نهضة الجزائر، ج2، ص180.

3/ أوضاع الطلبة الجزائريين: وينبغي أن نوضح بادئ ذي بدء أن الإحصائيات الرسمية لم تُخصص في تقاويمها أي مكان للطلبة الجزائريين باعتبارهم إما ضمن قائمة الطلبة المتمدرسين بصفة العموم أو ضمن قائمة الطلبة الأجانب على وجه التصنيف. . . وهو ما يزيد في تعقيد ضبط القوائم، أما الدفاتر المحفوظة في خزانة الوثائق التونسية والمحتوية على قائمة الطلبة المذكورين فهي تكاد تكون منعدمة والمقصود هنا التي تهم فترة الدراسة ولها علاقة بالموضوع المدروس وعلى ذلك فقد اضطررنا لتقدير عدد الطلبة الجزائريين بالإطلاع على عدة مراجع والقيام ببعض المقارنات بل حتى تقديم بعض المعطيات المعدلة، أو عن طريق المذكرات والمقالات الشخصية والمراسلات المتبادلة بين الطلبة وذويهم.

وتجدر الإشارة أيضا أن عدد الطلبة كان يتغير باستمرار بحسب الظروف السياسية والاقتصادية السائدة في القطرين، والملاحظ أنه تضاعف بعد الثلاثينيات ليصل إلى الأوج بعد الحرب العالمية الثانية، ولسوء الحظ فإننا لم نعرف حالياً أعدادهم بالضبط في كل سنة نظراً لافتقادنا الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع على الأقل خلال الفترة التي حاولنا فيها.

تفيد بعض الوثائق أنه كان يوجد بالجامع الأعظم في أوائل الثلاثينيات عدد كبير من الجزائريين، وقد كان هذا الارتفاع عندئذ محل تعاليق مختلف المراسلات المتبادلة بين الإقامة العامة بتونس والسلطة الفرنسية بالجزائر، والتي تشير إلى بعض «الأفراد الغير مرغوب فيهم»، والواجب ترحيلهم إلى الجزائر وذلك بمناسبة حصول أي اضطراب بجامع الزيتونة أو على مستوى الساحة السياسية بتونس.

ففي أوائل الثلاثينيات بلغ عدد الطلبة الجزائريين حسب الإحصاءات الرسمية 200 طالباً، وفي سنة 1938م إرتفع العدد إلى 250 طالباً، ولكن أكبر عدد من الطلبة الجزائريين كان في فرع الكاف وتوزر، حيث كانت توجد الجالية الجزائرية بكثافة، وارتفع العدد سنة 1952م إلى 1500 طالباً، و لم تتوفر لدي حالياً أي معلومات حول الطلبة ذوي الأصول

الجزائرية المستقرين بتونس، والذين يبدو أنهم كانوا مسجلين آنذاك بجامع الزيتونة، ومن ناحية أخرى لم تتوفر لدينا لسوء الحظ معلومات دقيقة وكاملة حول عدد خريجي الجامع الأعظم وفروعه من الجزائريين خلال الفترة المعنية إلا أن المعلومات القليلة التي تحصلنا عليها قد تُفيد بتحقيق الأهم من هذا العمل. . وبالمقابل سيكون هذا العجز حافزاً لباحثين آخرين قد يُقدّمون الأحسن في هذه النقطة.

لكن نلاحظ أنه ابتداءً من مطلع الثلاثينيات سيُصبح أغلبية الطلبة المنخرطين في الجامع الأعظم من الشمال والوسط والجنوب، بعكس ما كانوا عليه حتى قبل مطلع العشرينات وهذا ربما قد يجد تفسيره في النزوح الكبير للجاليات الجزائرية إلى هذه المناطق .

فحسب إحدى الوثائق بلغ مجموع طلبة جامع الزيتونة بفروعه في منتصف الثلاثينيات 683 طالب جديد، لا يمثل منهم سكان الحاضرة إلا عدد 136 طالب بنسبة 19% بـ98 طالب من قفصة وتوزر و68 طالب من سوسة، و46 طالب من القيروان والباقي ينتمون إلى الوسط والجنوب، وقد أشار هنري دي مونتينيي إلى «أن الطلبة الزيتونيين من أصيلي العاصمة قد أصبحوا يمثلون خمس (5/1) مجموع الطلبة في آخر الثلاثينيات »[1].

وفي آخر الحرب العالمية الثانية، كان عدد الطلبة القادمين من الجزائر (123) طالباً و4/3 منهم من قطاع قسنطينة مقابل طالب واحد من المغرب وسبعة (07) طلبة من ليبيا[2].

أما التوزيع الجغرافي للطلبة الموقوفين من جامع الزيتونة والمتعرضين للمتابعات العدلية من أجل نشاطهم السياسي، فقد كان يتمثل فيما بين سنتي (1910– 1945)م في 94 جزائرياً مقابل سبعة مغاربة[3].

---

1 -A. P. M. T. Série D35, Dossier 3. 28.

2 - I Bid.

3 - I Bid.

ونلاحظ من خلال إحدى الإحصائيات أن أكبر عدد من الموفوفين عرفته منطقة الشمال الغربي والوسط والجنوب بـ169 طالب مقابل 75 طالباً في المناطق المتبقية من القطر التونسي، وبعملية مقارنة بسيطة، نجد أن الجزائريين كانوا يشكلون 40% من كل الطلبة الموقوفين خلال هذه الفترة، وهذا لا يُفسر ازدياد عددهم فحسب بل أيضا على وجه الخصوص أهمية الدور الذي كانوا يقومون به ضمن الحركة النقابية والسياسية بجامع الزيتونة تؤكدها أيضا رواية الشيخ الخضر حسين بقوله« ويبلغ عددهم في هذا المعهد (مطلع الثلاثينيات) زهاء ألفين . . . من بينهم كثير من القطر الجزائري من دون احتساب ذوي الأصول الجزائرية المستقرين بتونس. . . »[1].

والجدير بالملاحظة أن مدارس سكنى الطلبة في المدن الداخلية لتونس لم أعثر على تفاصيل مهمة تتعلق بحالة الجزائريين فيها خصوصاً؛ وذلك نظراً لإنعدام أو قلة المعلومات المتعلقة بها على الأقل في الوثائق التي أمكننا الإطلاع عليها.

وقد استقر أغلب الطلبة الجزائريين بالعاصمة في مدرسة سكنية تابع للجامع الأعظم تسمى زاوية سيدي العجمي[2]، والواقع أن عدد المقيمين الجزائريين في مدارس سكنى الطلبة يفوق بكثير تلك التقديرات الرسمية إذ كانت كل غرفة تأوي بالفعل أكثر من ثمانية طلبة.

وهناك من الجزائريين من استأجروا بيوتا تابعة للخواص على نفقاتهم الشخصية ويصور على كافي في مذكراته حالة الطلبة الجزائريين في تونس: «كنا نختار شخصاً من بيننا

1- الخضر (حسين)، تونس وجامع الزيتونة، دمشق: المطبعة التعاونية، 1971م. ص29.

2- «A. P. M. T. S. D 35. Dossier 08»

مذكرة حول مدارس سكنى الطلبة مؤرخة في 1937م.

نكلفه بالمصاريف التي نودعها لديه، وكنا نطبخ وحدنا ونتق اسم العمل فيما بيننا بحيث يتسوق كل واحد منا بينما الآخر يقوم بالطبخ. . . »[1]

وتلك هي الظروف المعيشية التي كانت سائدة في مدارس سكنى الجزائريين في الثلاثينيات ولربما قبلها وهذا لنعرف مدى التحدي الذي رفعه هؤلاء خدمة لوطنهم ولتونس أيضا، غير أن الشيء الإيجابي في هذه السكنات أنها كانت مدعاة لتلاقي الجزائريين وتكاثر نشاطهم السياسي (الإجتماعات- المناشير. .) . . . وقد أخذ الوضع يتفاقم سنة بعد سنة بسبب إزدياد عدد الطلبة إلى أن أفضى الأمر إلى الاكتظاظ الذي انعكس على ظروف حفظ الصحة حتى أصبحت لا تطاق.

أما مدارس سكنى الطلبة فقد كانت بمثابة« الجحور» المفتقرة في أغلب الأحيان إلى أبسط وسائل حفظ الصحة (الماء الصالح للشرب- الكهرباء- قنوات تصريف المياه. .)[2]. هذا إضافة إلى مشاكل الرطوبة والتهوية وهو ما أدى إلى كثرة المصابين بأمراض كانت سببا في هلاك كثير منهم أو ذهاب عافيتهم وكثيراً ما يكون لهم سقوط مستمر من ذلك.

فقد ذكر عبد الرحمان اليعلاوي الجزائري في أكثر من مقال بجريدة لسان الشعب عن حال الطلبة الزيتونيين وظروف معيشتهم، فقد خصّص ما يزيد عن 20 مقالا صحفياً لدراسة تردي أوضاع طلبة الجامع. . . فذكر أن مدارس سكنى الطلبة«هؤلاء الغرباء الذين هجروا ديارهم طلبا للعلم ورفع وصمة العار عن هذه الديار»[3]. . وهي عبارة عن «خرابات تحتاج إلى الصيانة وهي أشبه "بمرابض الدواب" وتفتقر إلى الإضاءة و إن جلّ

1- مذكرات الرئيس علي كافي، (من المناضل السياسي إلى القائد العسكري «1946- 1952»، الجزائر: دار القصبة، للنشر، 1999م. ص24.

2 - 5. D35, dossier 08.

3- "كتاب مفتوح إلى مدير المعارف" -عماد- لسان الشعب بتاريخ 08/ 10/ 1924.

بيوت المدارس لا يتخللها الهواء أبدا ولا تكتحل من نور الشمس بمرود، وقد يضطر التلميذ لإسراج النور نهاراً ليمكنه إتمام أشغاله»[1]. . وأن قطر مياه الأمطار على سطوح البيوت يلحق أضراراً بأثاث التلاميذ خلال موسم الشتاء، أما في الصيف فإن الماء الكائن بالمواجل يتعكر ويتعفن وتكثر أكوام المزابل ومعها الروائح الكريهة ويتعفن الهواء كما كانت أغلب الغرف بلا أبواب مما يفسر بقاءها مفتوحة كامل الأوقات، ومما كان يتسبب في دخول بعض الغرباء إليها [2].

وترجع أسباب تردى أوضاع الطلبة الجزائريين إلى سياسة السلطات الإستعمارية التي تعتمد على "الميز والمفاضلة"، « فرغم إدعائها اللائكية فهْي تقدم الدعم للكنيسة وأما ما يُخصص للدين الإسلامي فتقدمه للزوايا وتسعى لتبجيل المنتسبين إليها وتصرف الأموال لأغطية الأضرحة والسناجق لامتلاك رقاب البسطاء بدلاً من السعي لتحسين أوضاع طلبة الجامع»[3]. إضافة إلى ذلك فإن المسؤولية تقع أيضا على إدارة الأوقاف التي بررت عجزها بنقص الموارد المالية «رغم أن مديرها يستعمل في تنقلاته داخل المملكة سيارة من النوع الرفيع ويسكن قصوراً فخمة»[4] لتظل المدارس «بفضل عناية المدير عبارة عن أكوام من الأوساخ ومرعى لجيوش الأمراض [5].

---

1 - "إدارة العلوم تحاول المغالطة" -عماد- لسان الشعب بتاريخ 09/ 04/ 1924.

2- "حالة مدارس سكنى الطلبة" -عماد- لسان الشعب بتاريخ 12/12/ 1924.

3- "حالة مدارس سكنى الطلبة" -عماد- لسان الشعب بتاريخ 01/02/ 1924.

4- "كيف تبدد أموال الأوقاف" -عماد - لسان الشعب بتاريخ 07/09/ 1924.

5- "حالة مدارس سكنى الطلبة" -عماد- لسان الشعب بتاريخ 01/09/ 1924.

على أن مثلا: حمود رمضان، ومحمد العيد الجباري، ويحي بوعزيز وحمو بن الحاج ناصر بن كروش[1] على وجه الخصوص، قد كانوا ضحية تلك الظروف الصحية القاسية السائدة في تلك "الجحور" وعرضة لأمراض السل والخنّاق والحمى التيفية[2].

ومن الجدير بالملاحظة أن الطلبة الجزائريين المرفوتين، وقتياً من الجامع الأعظم كأسباب سياسية كانوا يرفتون أيضا من مدارس سكنى الطلبة، فيكونون مضطرين إلى الإقامة بالوكالات (فنادق) والإقامة مع الباعة المتجولين وسائقي العجلات وعَمَلة الرصيف، ولا شك أن ذلك سيفقد حتماً نكهة الدراسة.

ورغم وضعيتهم الصعبة والمتردية للغاية، لم يتوان الطلبة الجزائريون عن مشاركة إخوانهم التونسيين الذين كانوا يقاسمونهم تقريبا نفس الظروف، في التعبير علانية عن استنكارهم وغضبهم وقد كانت مسألة المدارس تمثل دوماً مطلباً أساسياً ما فتئوا يكررونه بمناسبة كل حركة إحتجاجية أو إضراب عن الدروس، وما إنفكوا ينشرون عرائض الإحتجاج على صفحات الجرائد التونسية[3].

ومن الملاحظ أن تلامذة المعاهد الرسمية (كالمدرسة الصادقية) والتي كان بها عدد قليل من الجزائريين كانوا يتمتعون بظروف عيش أفضل تسمح لهم بالتفرغ لدراستهم [4].

وبالنظر إلى حالة الطلبة الجزائريين في الفروع الزيتونية الموجودة في داخل البلاد فهي مماثلة للحالة السائدة في العاصمة، من ظروف التعليم، أو مدارس سكنى الطلبة التي يرجع

1- دبوز، مصدر سابق، ج2، ص153.

2-Ben Miled (A): La naissance du mouvement ouvrier tunisien. Tunis. 1984. P131.

3- العياشي (مختار)، البيئة الزيتونية (1910- 1945) م، تر. حمادي الساحلي، تونس: دار التركي للنشر، 1990. ص115.

4- ABDESSALEM (Ahmed) , SADIKI et les Sadikiens, cérés productions, Tunis ; 1975, PP (102-111).

بعضها بالنظر إلى جمعية الأوقاف أو بعض الزوايا [1]، فقد كان وضعها أحسن بكثير من وضع المدارس الموجودة بالعاصمة.

وقد حوصل اليعلاوي ما يعانيه الطلبة من رداءة المسكن وثرة المصاريف والغربة وسوء حالة التعليم فذكر «أنه يقضي على هذه الحالة زهرة شبابه ويرجع إن أسعفه الحظ بعد مجاهدة سنين عديدة بشهادة أفقدتها يد الإدارة كل امتيازاتها»[2].

وتُضاف إلى ظروف الدراسة والتغذية والسكن، ظروف الإكساء فقد أصبح الطلبة الجزائريون يجوبون الشوارع بأسمالهم البالية طالبين الإحسان، و« . . إنه لمشهد محزن للغاية، ومثير للرثاء في هذا العصر الذي نعيش فيه، ولكنه مشهد متكرر للأسف. . » [3]، من شأنه أن يدفع تلك الطبقة المثقفة الكادحة إلى الثورة، حيث يذكر الشيخ محمد الصالح بن عتيق في مذكراته عن سنوات دراسته قائلاً: «وقد كانت تلكم السنوات التي قضيتها، رغم ما كنت أقاسيه من العناء والاحتياج من ألذ أيام حياتي. . ذلك أن التلميذ غالباً ما يعيش في الأحلام أكثر مما يعيش في الحقائق، وإذا تحدثت عن نفسي ووصفت ما كُنت ألاقيه أيام الطلب، فإنما أصف الأكثرية الساحقة من التلاميذ المهاجرين الجزائريين فلم يكونوا أحسن حالاً مني [4].

1- راجع: بن بلغيث الشيباني، فصول في تاريخ الأوقاف في تونس، صفاقس: مكتبة علاء الدين، 2003، ص-ص. (103- 124).

2- "التطويع والتحصيل بجامع الزيتونة"، عماد- لسان الشعب بتاريخ 30 جانفي 1924م.

3- العمل التونسي، عدد 10 جوان 1937م، ويرجى الاطلاع على: ABDELMOULA-Mohamed
L'université Zoytounienne et la société tunisienne, Maison tiers- monde. Tunis- 1984.

4- بن عتيق (محمد الصالح)، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية، الجزائر: مطبعة دحلب، 1990م، ص70.

وفيما يتعلق بالسيرة العامة للطلبة الجزائريين فقد نشرت جريدة "المشير"[1] التونسية اسم الطالب عبد الحميد بن مصطفى ابن باديس ضمن أسماء الطلبة الزيتونيين الذين نالوا شهادة التطويع من الجامع الأعظم في نهاية السنة الدراسية (1910– 1911)م، وكان ترتيبه الأول بين جميع الطلبة الناجحين، كما كان الطالب الجزائري الوحيد الذي تخرج من الزيتونة في تلك الدورة، وذلك على خلاف ما ذهب إليه معظم الذين أرّخوا لدراسة الشيخ ابن باديس في تونس، وهكذا كانت سيرة الجزائريين التعليمية، في الدراسة والمواظبة عليها. . فنالوا أولى الدرجات وكانوا قدوة لغيرهم في هذا الباب.

ومن جانب معاملة بعض التونسيين للجزائريين يذكر الشيخ الزاهري ذلك قائلا: «قضيت هناك أعواماً، في منادمة أولئك الظرفاء —من خلال نادي الأدب الذي أسسه– فما كنت أحسب العام يمضي منها إلا يوماً أو بعض يوم، ولا اليوم إلا لمحة بصر فلا أنسى تلك الطرائف التي كانت يُطاف بها علينا كما يُطاف بكؤوس الصهباء على الشاربين، وقد كنتُ أضيق ذرعاً بالشتائم التي يهجم بها بعض الأحداث التونسيين على أمة الجزائر بغير حق فكنتُ أحامي على أمتي بما كانت تنشره لي جريدة النهضة هناك. . »[2].

أما علي كافي وإن كانت دراسته في تونس جاءت متأخرة عن فترة الموضوع إلا أنها على الأقل تفيد في إضاءة زاوية معينة من ظروف معيشة الطلبة الجزائريين بتونس، فإنه يذكر إعجاب التونسيين وخصوصا النخبة منهم:« حينما أردنا الالتحاق بالمدرسة وجدنا

---

1 – المشير، تونس: 06 أوت 1911م.

2– الزاهري (محمد الهادي السنوسي)، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، تونس: المطبعة التونسية، 1926، ص67. ينظر أيضاً: جريدة النجاح، عدد 44، تونس: 19/ 12/ 1921م.

أن المسؤول عليها يُحب الجزائريين لذكائهم واجتهادهم وإتقانهم لعملهم و لم يكن ذلك المسؤول سوى الشيخ محمد الشاذلي النيفر. . »[1].

ويوم كان السعيد الزاهري بجامع الزيتونة، كانت له صلات أدبية وثيقة بالصحافة هناك، وكانت جريدة النهضة التونسية، تعتز بإنتاجه وتنشره بعناوين بارزة مطنبة، وفيها نشر كثير من قصائده [2].

وقد التحق الزاهري بجامع الزيتونة وتخرّج منه بشهادة التطويع (العالمية) وكان حاملوا هذه الشهادة في ذلك الوقت المبكر آحاداً، يستقبلون في أوْبتهم إلى الجزائر استقبال الفاتحين وفي مقال له بالشهاب[3]، إعترف بفضل الزيتونة عليه حيث قال: « أنا مدين لكلية جامع الزيتونة بتونس، فقد تخرجتُ فيها، وأحرزتُ على شهادتها، وما تراه في الجزائر من حركة العلم والأدب والإصلاح الديني. . . . هذه أيضا مدينة لجامع الزيتونة». وفي نفس المستوى من الجدول والعمل والأخلاق والمثابرة نجد العديد من الطلبة الجزائريين، أمثال الشيخ محمد خير الدين الذي نال المرتبة الثانية (شهادة التطويع) في جوان 1925، متقدماً على 50 طالباً زيتونياً. [4]

ويذكر الشيخ خير الدين أنه كان يشارك رفقة الطلبة الجزائريين بتونس في الحركات السياسية والفكرية التي عمت أرجاء البلاد، وكمثال على ذلك: المظاهرات السلمية التي قادها الشيخين (الصادق النيفر، وعثمان بن الخوجة)، احتجاجاً على احتلال جيوش الحلفاء العاصمة الإسلامية، إسطنبول ومضيق الدردنيل، أما المظاهرة الثانية كان سببها التدخل الساخر من الاستعمار في شؤون الباي (محمد ناصر)، وتحدّث الخطباء من الشعب

1- المصدر السابق، ص 1.

2- الخرفي (صالح)، عبد العزيز الثعالبي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995م، ص22.

3- "داء دفين في جامع الزيتونة"، ج2، مج13، الجزائر: ديسمبر 1933م.

4- محمد خير الدين، مذكرات، ج1، الجزائر: مطبعة دحلب، 1985. ص-ص. (77-78).

أمام قصر الباي بالمرسى وأكدوا ولائهم للعرش[1]، وكان من جملة الخطباء في ذلك اليـــوم الشيخ عبد الرحمان اليعلاوي الجزائري.

4/ الدور الطلابي الجزائري وتعدد مساهماته:

إن القرن التاسع عشر الميلادي، إذا نظرنا إلى أحرياته بإعتبارها رابطة وهمزة وصل بين عصور الانحطاط الثقافي والفكري في الجزائر وعصر النهضة، فقد كانت فترة طيبة لظهور ثلة هامة من الصفوة الجزائرية التي أخذت على عاتقها مهمة النهوض الثقـــافي والعلمـــي والتي وجدت في جامع الزيتونة وسيلتها المثلى، وقد كانت تنهل من مناهل العلم ما تيسر لها، ثم تعود إلى وطنها دون أن تقطع الصلة بينها وبين تونس.

وبهذا شكّلت جسراً فكرياً وسياسياً وبشرياً بين القطرين، توّج بتشييد معهـــد ابـــن باديس في قسنطينة الذي كان بمثابة ملحقة رسمية لجامع الزيتونة وفرع مُتمم له.

إن الشيخ الخضر حسين* يعتبر واحداً من تلك الصفوة الجزائية لذا نراه يُمـــارس دوره الفكري كطالب بتونس، حيث تقدم بأوّل محاضرة علنية قامت في تونس في نادي قدماء

1- المصدر نفسه، ج1، ص55.

*- الخضر حسين « 1874- 1958»: من أصل جزائري وهو بن الحسين علي بن عمر الشريف وأسرته ترجع إلى البيت العمري بطولقة، كان قد رحل والده منذ قرن إلى نفطة صحبة صهره مصطفى بن عزوز، إذ كان متزوجاً بابنته. ولد الخضر بنفطة ثم انتقل مع والده إلى تونس العاصمة ودخل الزيتونة حيث حصل على شهادة التطويع، وفي سنة 1904م أصدر "مجلة السعادة العظمى" تولى التدريس بالصادقية والزيتونة، هاجر إلى دمشق ثم إلى مصر عام 1922م، أين ترأس مجلة " نور الإسلام" الأزهرية كما درس في جامع الأزهر، أنشأ جمعية الهداية الإسلامية، عين عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.. . وترأس جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية، كما اختير عام 1953 إماماً لمشيخة الأزهر للتوسع أكثر راجع: الخضر حسين: مصدر سابق. ص6- كرو، المرجع السابق، ص-ص. (11-14) - أنور الجندي الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، القاهرة: الدار القومية للطباعة، 1965م. ص-ص. (166- 172).

الصادقية عام 1906م، بعنوان «الحرية في الإسلام» والتي طبعت بعدها في كتاب مستقل[1]، ثم نجده يقدم استقالته فيما بعد ويُصرّ على قبولها حتى يتحرر من أعباء الوظائف التي للإستعمار يَدٌ وسلطان عليها . . ومن ثم عاد للعاصمة ليُلقي دروسه العلمية تطوّعاً في جامع الزيتونة، مساهمة منه في بذر البذور الأولى للنهضة الفكرية التونسية الناشئة، كما تطوّع في وضع فهارس لمكتبات جامع الزيتونة وطبع منها أربع مجلدات، ثم عُيّن أستاذاً في عام 1908م بالمدرسة الصادقية ونجده مرة أخرى يرفض أن يكون قاضياً أو مستشاراً في محاكم تعيش في ظل الاستعمار، وهو موقف مشرف آخر تعتز به النخبة الجزائرية، وإلى جانبه مهامه التدريسية في مدارس الزيتونة والصادقية والخلدونية كان يُواصل إلقاء المحاضرات ونظم القصائد وكتابة المقالات في مختلف الشؤون التونسية.

وخلال هذه الفترة، كان يحث الطلبة على المطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني وعلى تنظيم صفوفهم في جمعية طالبية في تونس عام 1907م، وشرع الطلبة يطالبون بالإصلاح بإيعازه وتوجيهه الخفي لهم حتى تطوّر الأمر إلى إعلان إضراب 16 أفريل 1910م، حيث كان عددهم حينها السبعمائة (700) طالب،[2] وقد كانت زيارته إلى بلده الجزائر بداية جديدة لحياته حيث شرع بعدها تحضير نفسه لتحقيق أفكاره وميوله الإصلاحية.[3]

وزاده تفانيًا في العمل الفكري الإصلاحي، تعاونه مع خاله العلامة الجزائري المكي بن عزوز*، وصديقه الجزائري الآخر الشيخ الهاشمي بن المكي**، صاحب جريدة " أبو قشة"

1- كرو (محمد أبو القاسم)، محمد الخضر حسين، تونس: دار المغرب العربي، 1973م. ص15.

2- بن عاشور (محمد الفاضل)، أركان النهضة الأدبية بتونس، تونس: مكتبة النجاح، 1381هـ.

3- بن عاشور: المصدر السابق، ص42.

*- المكي بن مصطفى بن عزوز البرجي (1854- 1915): من أصول جزائرية ولد بنفطة. بعد هجرة والده إليها حيث أسس بها زاوية نفطة الشهيرة، ومستقر عائلته كان في طولقة (بسكرة)، ولي الإفتاء بنفطة كان كثير التنقل بين الجزائر وتونس، رحل منفياً إلى الأستانة سنة 1884م بعد إفتاءه بالمقاطعة

وكذا أخوه المكي بن الحسين الذي كانت له مساهمات أدبية ولغوية كبيرة حيث إشتهر بشعره وتنقيباته وأبحاثه اللغوية[1]

كما أن التكوين التقليدي الذي خضعوا له في دروسهم ومناهجهم بتونس قد خلق منهم طبقة ثقافية كادحة ثائرة ليس فقط ضد ذلك التكوين الذي أكل عليه الدهر وشرب بل أيضا ضد كامل النظام الاستعماري الذي كان يسعى إلى تهميشهم، وعلى هذا الأساس فإن الأفكار العلمانية التي عبّر عنها مثلاً الطالب الجزائري عبد العزيز الثعالبي في مطلع القرن العشرين من خلال كتابه «روح التحرر في القرآن»[2]، قد تسبّبت في محاكمته الشهيرة سنة 1904م، ذلك أنها لم تحض برضى الحركة الزيتونية و اعتبرت أفكاره سابقة لأوانها حيث إحتفظت هذه الأخيرة بصبغتها الدينية إلى أبعد حد.

الإقتصادية لفرنسا، عينه السلطان مدرساً بدار الفنون، لعب دوراً كبيراً في النضال الفكري والصحفي بالمهجر، له مؤلفات عديدة ودواوين شعر، توفي بالأستانة. للإطلاع راجع: الهادي السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص-ص. (138- 139) - نويهض (عادل)، معجم أعلام الجزائر. بيروت: مؤسسة النويهض الثقافية؛ 1983م- دبوز:مصدر سابق، ج1. ص-ص. (145- 147) - سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، بيروت: دار الغرب الإسلامي. 1998م- ص ص. 6- 61؛ 473.

**- الهاشمي بن المكي (1881- 1942) م: انتقل من مسقط رأسه صحبة والده إلى العاصمة أين أتم تعليمه في جامع الزيتونة والخلدونية. كما كان له نشاط في العمل الصحفي حيث أصدر عدة جرائد كمجلة " الإسلام" و"أبو قشة" و"طرابلس"، وبعد عودته من طرابلس بقليل أودع السجن وبعد إطلاق سراحه سافر إلى تركيا وأندونيسيا، وبها أسس مدرسة لتعلم العربية وأصدر جريدة "بورد بودرو" وبجاكرتا تزوج.. وبقي فيها ثم انقطعت أخباره بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية. راجع عنه- بن قفصية (عمر)، أضواء على الصحافة التونسية، تونس: دار بوسلامة، 1972م، ص-ص. (96- 97).

1- كرو: المرجع السابق، ص-ص. (20- 22).

2- راجع: الثعالبي (عبد العزيز)، روح التحرر في القرآن، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985.

ومن القضايا أيضا التي كانت محل نقاش في الأوساط الطلابية منذ مطلع القرن العشرين الأفكار القومية، والحركة النقابية ومواضيع تحرير المرأة والنهضة الثقافية والدينية بوجه عام، و لم يتمكن لا الجامع الأعظم ولا القانون الأساسي لرجال التعليم الزيتونيين الصادر سنة 1912م، من تثبيط عزيمة الطلبة المناصرين للنزعة التجديدية وكثيراً ما أشارت التقارير الصادرة عن الإدارة الفرنسية إلى التحول الكبير والملاحظ في عقليات الطلبة خصوصا بعد فترة الحرب العالمية الأولى، معتبرة أن الأمر يتعلق بظهور تيار فكري مطلبي جديد متعارض مع نزعة الاستسلام التي كانت تميز في سالف الزمان الوسط التونسي التقليدي.

وقد يعود ذلك بالإضافة إلى تنامي النشاط السياسي والصحفي خلال هذه الفترة إلى الوجود المكثف للطلبة الجزائريين، والذي أعطى دعماً معنوياً ومادياً قوياً ساهم في تنامي –بصورة تنقص أو تزيد– النشاط الفكري التونسي.

5/ **النشاط الجمعوي الطلابي**:سنحاول في إطار هذا المطلب التحدث عن الحركة الجمعوية الطلابية من خلال مساهمات الطلبة الجزائريين بتونس من داخل مختلف التنظيمات والهياكل الثقافية والعلمية التي شهدتها تونس والتي أسسوها بشكل منفرد أو التي كانوا موجودين بها جنباً إلى جنب مع الطلبة التونسيين وكذلك حول مساهماتهم في تأسيس وتنشيط الأحزاب والنقابات والجمعيات الأخرى. . . مع الإشارة المسبقة إلى قلة الوثائق الرسمية التي تتحدث عن الوجود الجزائري–بالخصوص– في هذا النضال، لأن هذه التقارير تتحدث على صفة العموم وعلى أساس وحدة الهدف، وقلّما تُلمح إلى أصل هؤلاء المناضلين الناشطين.

لقد شكلت الجمعيات كعامل للتنظيم ونشر الوعي الفترة الوسيطة للحركة الإجتماعية والسياسية بتونس، وكانت تواصلاً للمرحلة الثقافية الأولى منذ الحماية حتى سنة 1904م وهي الفترة التي إعتمدت فيها النخبة التونسية على الكتابة وتأسيس الجرائد ونشر الأفكار

والتوعية عن طريقها، جاءت الجمعيات كمرحلة ثانية للتوعية المباشرة وعن طريق الثقافة والفنون تمهيداً للتنظيم السياسي عن طريق الأحزاب والنقابات بعد الحرب العالمية الأولى كمرحلة أخيرة. . . وقد تشكلت الجمعيات في العشرية الأولى من القرن العشرين (20م) لا بدافع الوعي التنظيمي والسياسي فحسب بل بدافع أخلاقي ثقافي أساساً فقد نوهت الجرائد بأهمية التضامن بين أفراد المجتمع التونسي في كل المشاريع التي يتم بعثها.

وساهم الطلبة الزيتونيون في كل أصناف الأنشطة من خلال الجمعيات التي أحدثوها عدا ميدان الصنائع . . كما ساهموا بمبادرة بعض منهم خارج الجامع الأعظم بالنشاط في جمعيات أخرى منها الموسيقية و الفنية و الخيرية وحتى الرياضية[1] – كما تأسست إلى جانب جمعيات الطلبة الزيتونيين جمعيات لطلبة تجمعهم الجهة التي ينتمون إليها مثل: الاتحاد الصفاقسي الزيتوني[2]، الأخوة القيروانية الزيتونية[3]، التضامن الزيتوني الماطري[4].

وإلى جانب ذلك فقد ساهموا في جمعيات كشفية وفنية وحتى رياضية أخرى دون أن يكون لهم سبق التأسيس لها.

بالمقابل نشط الطلبة الجزائريون بتونس وكذا بالكلية الزيتونية فمنذ 1934م بادروا بتأسيس جمعية تمثلهم ولو أن دورهم السياسي كان متحفظا نتيجة لتعرضهم إلى مراقبة السلطات الفرنسية وتهديدهم بالطرد إلا أن مساهمتهم الثقافية و الأدبية و الطلابية كانت هامة وكانت الجمعية إلى جانب تأطيرها المادي للطلبة تُساهم في إحياء بعض الحفلات كحفلات نهاية السنة الدراسية [5]. . كما أسس الطلبة الزيتونيون الجزائريون أصيلي

---

1 –A. P. M. T. Série E – B509 – Dossier 136 –

2 –A. P. M. T. Série E – B509 – Dossier - 427

3 –A. P. M. T. Série E – B509 – Dossier - 448

4 –A. P. M. T. Série E – B509 – Dossier - 467

5– راجع –الوزير– تونس: بتاريخ 1993/05/25.

وادي سوف سنة 1937م جمعية للمساعدة على دراستهم[1], وفي نهاية الأربعينات تشكلت البعثة الجزائرية الزيتونية لهيئة العلماء[2].

إن جامع الزيتونية ومدارس سكنى الطلبة وعددها حوالي 20 مدرسة[3]، و التي كان يقبع في بعضها الطلبة الجزائريون و المنحدرون في أغلبهم من الأوساط الشعبية لم تكن تمثل سوى أحد جيوب الفقر التابعة لذلك المجتمع التقليدي والمودة لحركات المعارضة والانتفاضات الشعبية, كما أن دورهم في تنشيط الحركة الفكرية(الاحتجاجية) التونسية قد بدأ في فترة مبكرة مع حركة «الشباب التونسي». ولا أدلّ على ذلك أنهم شاركوا – رغم قلتهم- في أول إضراب عرفته تونس في سنة 1912م، وكان إضراب الطلبة التونسيين، وإن لم تكن ظاهرة جزائرية صرفة فإنها مَدينةٌ إلى حد ما إلى الوجود الجزائري وللأفواج المتعاقبة على جامع الزيتونة من الطلبة الجزائريين بعد ذلك.

وقد تميّزت أوائل الثلاثينيات – خصوصا بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين- بسرعة سير الأحداث، وهو أمر يمثل منعرجاً في تاريخ العمل الوطني التونسي على الخصوص ذلك أن الطلبة الجزائريين النشيطين في الحركات التنظيمية التونسية الصرف أو المختلطة، قد أظهروا إبتداءً من الثلاثينيات بأعمالهم الواسعة النطاق والمثيرة للإنتباه أحياناً أخرى.

فبمبادرة من جريدة "الصواب" التونسية، تم بعث جمعية أطلق عليها اسم «جمعية تلاميذ جامع الزيتونة» وتولى الجزائري الطيب بن عيسى مع عبد الرحمان الكعاك إعداد

---

1 –A. P. M. T. Série E – B509 – Dossier - 595

2 –A. P. M. T. Série E – B509 – Dossier - 252

3– التعبوري (محمد) وآخرون، التقويم الذهبي التونسي، تونس: المطبعة التونسية، (1938– 1939)، ص-ص. (134– 136).

*– الطيب بن عيسى (1885– 1965) م: من أصل جزائري، وهو من نسل عيسى الدفين بجهة بسكرة بقرواو، ومات بها، أما ذرية الشيخ بن عيسى قرواو من الإناث فهن كثيرات استقروا بالجزائر العاصمة

قانونها الأساسي، وكان من أهم مقاصدها هو تأسيس نادي يجمع شمل تلاميذ الجامع الأعظم وأساتذته[1].

وفي أوائل شهر مارس 1910م وجه الطلبة المتأثرين بالأفكار الإصلاحية للثعالبي وقبله الشيخ الخضر حسين عريضة إلى حكومة الحماية يطالبون فيها بتحسين ظروفهم العامة، ومع تماطل الإدارة، شنّوا إضرابهم الأول يوم 16 أفريل 1910م، ثم أتبعوه بمظاهرات في شوارع المدينة بعد ذلك بيومين زار ثلاثة ممثلين عن حركة الشباب التونسي بما فيهم حسن قلاتي* جامع الزيتونة حيث ألقوا خطباً حماسية دامت ساعتين[1].

وتونس، وقرية قرواو تابعة لحكم الصومعة (2كلم من بوفاريك)، درس الطيب بالزيتونة وساهم في تحرير عدد من الصحف بتونس منها: الرشيدية، والصواب، كما أنشأ سنة 1911م جريدة المشير ثم الوزير سنة 1920م، كان عضواً بارزاً في الحزب الحر الدستوري بشقيه (القديم والجديد)، وانتخب عضواً بالمجلس المليّ، وسجن في حوادث أفريل 1938 إلى غاية 1943م حيث أعاد إصدار الوزير ثم المشير بعد استقلال تونس. وله عدة مؤلفات- للتوسع راجع: - "استطلاع للطيب بن عيسى" — الوزير- تونس: عدد (20/ 09/ 1928) — عدد (14- 10- 1928)

- دبوز: مصدر سابق، ج1، ص114- بن قفصية: مرجع سابق، ص-ص. (103-104)

1- بن الحاج (عثمان الشريف)، أضواء على تاريخ تونس الحديث (1881- 1924). تونس: دار بوسلامة للنشر والتوزيع، 1982م. ص143.

*- قلاتي حسن علي (1880- 1966) م: من أصول جزائرية، ومن مواليد قصر البخاري، هاجرت عائلته إلى تونس بعد احتلالها وعمره لم يتجاوز السنة، استقر بتونس عند نقل والده على بن أحمد المترجم العدلي من سوسة إلى تونس حيث أنهى نشاطه المهني. لم يلبث حسن أن عاد إلى الجزائر لدراسة الحقوق بجامعتها.. ولما عاد إلى تونس اشترك مع علي باشا حامبة في تأسيس حركة تونس الفتاة وجريدة التونسي (1907م)، ثم انخرط معه أيضا في لجنة عمل لمساعدة الليبيين في حربهم مع إيطاليا وكانت لهم مواقف جريئة من أحداث الزلاج ومقاطعة الترمواي، كلفته السجن والنفي وحين عودته ترأس جمعية الأداب المسرحية ثم الجمعية الخلدونية، ساهم في تأسيس الحزب الحر الدستوري، وعندما اختلف مع أعضاءه عقب مغادرة الثعالبي تونس إلى المشرق، أنشأ حزبه الإصلاحي وجريدة البرهان

ورغم الإجراءات القمعية التي مورست على الطلبة المحتجين، إلا أن ذلك لم يـــردعهم في المساهمة بأعداد وافرة في حوادث الجلاّز (1911م) ومقاطعة الترمواي (1912م) غير أن الأنشطة النضالية الفردية للجزائريين لم تتوقف، ففي أوائل سنة 1915م والحـــرب علـــى أشدها كان الطالب توفيق المدني ينشط في تعليق مناشير تتهجم على فرنسا مرات عديدة على أبواب الجامع الأعظم[2]، والملاحظ أن الوثائق التي حجزت لدى المـــدني كفيلـــة أن تُعطينا فكرة عن مشاغل الطلبة أثناء تلك الفترة. . . ، وبالنسبة للأحداث السابقة لم أجد اسم الثعالبي ضمن المُهدّئين، ولو أنه كان يُدبّج المقالات الطويلة دفاعاً عن قضية الطلاب خصوصاً والتونسيين عموما، حتى أنهم اعتبروا القسم العـــربي بجريـــدة "التونـــسي" أي "الاتحاد الإسلامي" –الذي تولى الثعالبي تحريره– قسمهم[3].

كما برز خلال هذه الفترة (ما بعد الحرب)، اسم الطالب مفدي زكريا الذي دعا إلى الوحدة والوفاق، حيث أسس مع زملائه بالبعثة مجلة حائطية أسماها "الوفاق" لتُـــصبح في الثلاثينيات جمعية لها جريدة خاصة بها[4].

(لسان الوئام الفرنسي التونسي)، وله جرائد أخرى كجريدة النهضة الاقتصادية، والنهضة اليومية، وعندما فشلت كل مطامحه إ

انكفأ على نفسه وعدل عن السياسة، للإطلاع راجع: المدني، مصدر سابق، ج1، ص222، الجابري، النشاط العلمي، ص293 وأيضا: الزمرلي (الصادق)، أعلام تونسيون، تق، حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986م، ص-ص. (33- 338).

1-Chedly (khairallah) , Essai d'histoire et de synthèse des mouvements nationalistes tunisien « le mouvement - jeune » Tunis: Etablissements Bonici, S. D, P232.

2-يراجع: أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج1، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص106.

3- الثعالبي (عبد العزيز)، تونس الشهيدة، ترجمة سامي الجندي، بيروت: دار القدس، 1975، ص12.

4- ناصر (محمد)، مفدي زكريا (شاعر النضال والثورة)، الجزائر: المطبعة العربية، 1984م، ص24.

ودور الطلبة الجزائريين لم يقتصر على مجرد تلقي الدروس والحصول على الشهادات ثم العودة إلى بلادهم، بل كان لهم دور بارز في مجال الأنشطة الطالبية وتأسيس الجمعيات، والإنخراط في الأندية الأدبية التونسية والإندفاع للعمل ضمنها.

وكانت أكثر الجمعيات التونسية تأثيراً في الوسط الطلابي جمعية "الشبيبة التونسية"، التي تأسست في شهر جانفي 1937م، برئاسة الجزائري حسن بن عيسى وبإشراف هيئة تتركب من 13 عضواً يوجد ضمنها عدد معتبر من الجزائريين، وقد تبنّت هذه الجمعية كل المطالب المتعلقة بتحسين ظروف دراسة الطلبة وإقامتهم.

وفي فيفري 1938م، أسّس الجزائري محمد العيد الجباري* جمعية "شبيبة شمال إفريقيا الموحدة"، بهدف توحيد الشباب الوطني في الأقطار المغربية الثلاثة حيث يتمثل نص القسم المطبوع على بطاقات الانخراط فيما يلي:« أقسم بشرف الشمال الإفريقي أن أعمل طوال حياتي على رفع لوائه عالياً وتوحيد ربوعه وتعزيز مجده» [1].

كما تجدر الإشارة إلا أن العيد الجباري كان يتقلد في سنة 1936م خطة رئيس مساعد للشبيبة الدستورية، وهي منظمة ناضلت من أجل خدمة الشباب التونسي ومستقبله، وقد

---

*- الجباري (محمد العيد) «1911 – 1942 »م من أصل جزائري، فهو محمد العيد بن الخليفة بن محمد لحساسنة، ولد بعين عبيد بعد أن تعلم العربية وحفظ القرآن الكريم... انتقل إلى تونس التحق بجامع الزيتونة، وتحصل على شهادة التطويع سنة 1929م، ناضل في الحزب الحر حيث تعرض للسجن والنفي بسبب موافقة النضالية. كانت له تأثيرات في أوساط الطلبة الزيتونيين، حيث قاد إضرابات الطلبة (1936- 1937) م، أسس سنة 1937م جمعية شبيبة شمال إفريقيا الموحدة، وله عدة أعمال علمية وثقافية وأدبية، كالغرائد في العلم والأدب وديوان اللهيب، للتوسع راجع: الجابري، النشاط العلمي، ص 190- هـ 31- وأيضا أنظر عمار هلال، المرجع السابق، ص-ص. (158- 161).

1- هلال (عمار)، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م، الجزائر: مطبعة لافوميك، 1986، ص-ص. (1956- 1958)

أشارت التقارير إلى وجوده بالجزائر في أوائل سنة 1937م، صحبه رفيقه أحمد بن سليمان للقيام بجولة دعائية لفائدة جمعيته بالإتصال مع حزب الشعب الجزائري[1].

ولم يمض شهر على تأسيس جمعية الجباري السابقة, حتى وصل عدد منخرطيها إلى أزيد من 100 عضو من تونس, منهم 40 عضو من جامع الزيتونة، كانوا يعقدون إجتماعات دورية في مقر الجمعية [2]، ولكن السلطات الفرنسية تنبهت لنشاطه فاعتقلته مع نهاية 1937م. ومن جهة أخرى ومن جانب التأهيل العلمي للطلبة قام توفيق المدني في 15 ماي 1924م بتأسيس "المجمع العلمي التونسي", الذي كان يهدف إلى «إعادة الأمجاد العلمية لتونس» حيث كان المدني هو واضع قانونه الأساسي, بعد تنقيح الجماعة المؤسسة والذي أراده من خلاله:

- إيجاد الألفاظ العلمية والتعليمية التي تحتاجها اللغة العربية.
- البحث عن آثار التونسيين العلمية والتقنية.
- تعميم العلم والتنشيط عليه.

كما كان له الدور البارز مع عصبة من المفكرين والكتاب الجزائريين والتونسيين في تأسيس الرابطة العلمية سنة 1924م, وهذا سعيًا منهم إلى إيجاد وسيلة فعّالة للتضامن الفكري والقلمي بينهم, وخدمة الحركة العلمية ببلادهم, ونفع شعبهم, والسعي في رفع مستواه العلمي والسياسي والاجتماعي. . . [3]».

وفي سنة 1933 تأسست في تونس «جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين [4]» والتي يوجد مقرها في نادي الشبيبة المدرسية التابع لجمعية قدماء المدرسة الصادقية وكانت هذه

1- المرجع نفسه.

2- هلال: المرجع السابق، ص158.

3- المدني: مصدر سابق، ج1، ص-ص. (329- 331).

4- سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية، ج3، ط4، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992، ص106

الجمعية تابعة لجمعية العلماء ومتعاطفة مع الحزب الحر الدستوري بشقيه (القديم — الجديد)[1].

ولقد استغرق العمل على إخراجها من طور التمهيد والتفكير إلى الطور العلني, بضع سنوات لإعتبارات تتعلق بالأوضاع الخاصة بالطلبة الجزائريين، كما أن بروزها ظلّ مرتهناً بمبادرة تصدر عن شخصية قيادية لها تأثيرها الخاصة بين الطلبة، حتى إذا زار الشيخ الإبراهيمي تونس في بداية الثلاثينيات واجتمع بالطلبة حيث دعاهم إلى تكتيل الصفوف والتلاحم، والخروج بقضية شعبهم إلى العمل المُجدي والنافع حينها تبلورت في أذهان هؤلاء الطلبة (كانوا 200 مع مطلع الثلاثينيات)، فكرة إبراز الجمعية وبعد سنتين من المشاورات أمكن للجمعية أن تعلن عن نفسها حيث أولوا رئاستها إلى الشيخ المهدي البجائي، كما أسندوا رئاستها الشرفية إلى الشيخ المختار بن محمود (1909– 1976)م أحد مشايخ الزيتونة.

غير أن رئاسة البجائي للجمعية لم تدم سوى بضعة شهور، ثم آل أمر رئاستها إلى الشيخ عبد المجيد حيرش، الذي إستمر على رأس الجمعية حتى نهاية سنة 1934م. [2]

وفي سنة 1935م، إنعقد مؤتمرها الأول الذي توّج الشيخ الشاذلي المكي* رئيساً للجمعية، وهي الرئاسة التي إمتدت إلى أربع سنوات، وتميّزت فترة رئاسته بدعم مكانة

---

1 - A. P. M. T- Série. D36 , Dossier 01, P. 1.

– رسالة مؤرخة في 23/ 09/ 1933م.

2– الجابري: النشاط العلمي، ص134.

*– الشاذلي المكي (1912– 1988) م: ولد بخنقة سيدي ناجي (بسكرة)، وبها حفظ القرآن الكريم. واستقر مع عائلته في تبسة حيث عكف على العلم والتحصيل، وفي شبابه ناضل في صفوف النجم، ثم التحق بالزيتونة كان له بها نشاط فكري وطلابي كبير، ومع اندلاع الحرب العالمية II، أعتقل بعين الصفراء، وبعد إطلاق سراحه سافر إلى تونس ثم مصر، وكان الشيخ الفاضل بن عاشور هو الذي مكنه

الجمعية في الأوساط الطالبية والعلمية، وجعلها محور عدد من اللقاءات والمناقشات العلمية، فيذكر عمار النجار «أن الشيخ الشاذلي المكي كان يعقد الاجتماعات الأسبوعية، بهدف تمرين الطلبة على الخطابة والارتجال. . »[1].

وعلى عهد الشاذلي المكي إستقبلت جمعية الطلبة الشيخ عبد الحميد باديس، ثلاث مرات فيما بين سنتي (1936- 1937)م، ولعلّ أهم ما قامت به أيضاً في هذه الفترة هو إصدارها لنشرية الثمرة الأولى سنة 1937م عن مطبعة الشباب — شارع باب المنار- رقم 21- تونس. واشتملت الثمرة الأولى على ملف حافل بالدراسات الدينية، التي أُلقيت على منابر الجمعية عند الإحتفال بذكرى الهجرة النبوية الموافقة لسنة 1356هـ، وقد تضمن الملف مشاركة تلة من رجال الإصلاح والوطنية تونسيين وجزائريين، كما كانت الجمعية تقيم إحتفالات عديدة في نطاقها الخاص خصوصاً بمناسبات استقبال الطلبة الجدد أو توديع الطلبة المتخرجين [2].

وقد ضمت الهيئة الإدارية التي ترأسها الشيخ الشاذلي المكي، أربعة عشرة عضواً هم السادة: السعيد بن مخلوف الحجازي (نائب الرئيس)، أحمد أبي زيد قصيبة الأغواطي (كاتب عام)، محمد العربي بن إسماعيل الصايغي (نائب الكاتب العام)، محمد المبروك السناني (أمين مال)، مصطفى ابن سعيد الجيجلي (نائب أمين عام)، الهادي بن أبي الق

من اجتياز الحدود التونسية الليبية، عمل ضمن نطاق الجامعة العربية، اشترك في الثورة التحريرية، وغداة الاستقلال اشتغل بالتعليم ووظائف إدارية أخرى، وبعد التقاعد التزم بيته حتى وفاته. طالع عنه في:

- بوشارب (عبد السلام): تبسة (معالم وآثار)، الجزائر: نشر المتحف الوطني للمجاهد، 1996م. ص- ص. (37- 38).

1- الثمرة الأولى، إصدار جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين بتونس (1936- 1937)، تونس: مطبعة الشباب، ب. ت.

2- الجابري: النشاط العلمي، ص108.

اسم السطايفي(مراقب عام)، أمّا المستشارون فهم: أحمد بن محمد حماني الميلـــي، أحمـــد البشير اليحياوي، أحمد بن صالح بن دياب القنطري، علي بن محمـــد الـــشرقي، محمـــد الأخضر السائحي، عثمان عثماني الصايفي، وعبد الحميد التيجاني [1].

ويبدو أن نشاط الجمعية إتخذ في بعض الأحيان أبعاداً سياسية جديدة، كتبنيها لنـــشيد خاص يحفظه الطلبة ليُؤدى في المناسبات الوطنية والاجتماعية التي تضم الجزائريين أعـــدّه محمد الأخضر السائحي مطلعه:

سندرأ بالسيف العذاب ونرفع بالعِلم فيك العَـــلم

فمن للجزائر غير شباب يُجاهد بالسيف أو بالقلم

ومن المظاهر السياسية أيضاً، محاولتها ربط الصلة بصفة مباشرة وفعالة بحركـــة العمال الجزائريين، ودعوتها للتحالف مع الجمعية الوطنية الجزائرية الإسلامية، التي كـــان يرأسها "قلشن الزين"، وتضم في عضويتها الجزائريين العاملين بتونس إظهاراً للتضامن بين أعضاء الجالية الجزائرية المستقرة بتونس.

وفي شهر أفريل 1946م أُنتخبت هيئتها الإدارية الثانية برئاسة "أحمد بـــوروح" وقـــد أُسندت رئاستها الشرفية في هذه المرة إلى الطاهر بن عاشور، ليترأسها بعد ســـتة أشـــهر الشيخ عبد الرحمان شيبان، وفي سنة 1947م ترأسها "محمد مرازقة"، وعُين عمار النجـــار كاتبا عاما، وبين سنوات (1948– 1953)، تردى النضال الطالبي إلى حالة من الارتخـــاء والإنكماش، وإستمرت كذلك حتى سنة 1957م، عندما جمّدت جبهة التحريـــر الـــوطني نشاط جميع الجمعيات والفروع الطالبية وأعادت بعثها من جديد في شكل تنظيم موحد يسمى: "الإتحاد العام للطلبة الجزائريين"[2]. ويصف علي كافي وضعية التنظيمات الطلابية

1– جريدة الأسبوع، شيبان (عبد الرحمان)، عدد 53، بتاريخ 30 مارس 1947م، ص 4.

2– الجابري، النشاط العلمي، ص–ص. 5124– 149.

في تونس بقوله: «كان الطلبة في تونس منقسمين ما بين حزب الشعب، وجمعية العلماء المسلمين، وعندما وصلنا إلى تونس أعيد انتخاب جمعية الطلبة الجزائريين. . »[1].

إن هذا النشاط الفيّاض الذي كان يقوم به الطلبة الجزائريون داخل الهياكل والأطر المتاحة في جامع الزيتونة، يعكس من جهة الحالة الواقعية لنضجهم السياسي، ومن جهة أخرى نوعية وحقيقة التحولات الفكرية والسياسية التي بدأت تحدث في المجتمع التونسي.

1 - مذكرات، ص25.